اسم المقياس:النص الأدبي القديم–شعر–

اسم الأستاذ: محمد سيف الإسلام بوفلاقة

المستوى:س:01–ليسانس

وقفة مع قصيدة وصف الجبل لابن خفاجة :

القسم الأول

النص:

قال ابن خفاجة الأندلسي(من الطويل) :

1- وأرعَنَ طمّاحِ الذُّؤابةِ باذِخٍ يُطاوِلُ أعنانَ السّماءِ بغارِبِ
2- يَسدُّ مهَبَّ الرّيح عن كل وجهَةٍ ويزحَمُ لَيلاً شُهبَه بالمناكبِ
3- وَقور على ظَهْرِ الفَلاةِ كأنّهُ طوالَ اللّيالي مُطرِقٌ في العواقبِ
4- يلوثُّ عَليه الغيمُ سودَ غَمائمٍ لها من وميضِ البرْقِ حمرُ ذوائبِ
5- أصَخْتُ إليه وَهوَ أخرسُ صامتٌ فحدَّثني لَيلَ السّرَى بالعجائبِ
6- وقال ألا كم كنتُ مَلجأ فاتكٍ وَموْطِنَ أوّاهٍ تبتّلَ تائبِ
7- وكم مرَّ بي من مدلج ومؤوّبٍ وَقالَ بظلّيّ من مطيّ وراكبِ
8- ولاطمَ من نُكب الرّياح معاطفي وزاحمَ من خُضر البحار جوانبِ

9- فما كان إلاَّ أن طوتهم يدُ الرَّى وطارت بهم ريحُ النوى والنوائبِ
10- فما خفق أيكي غير رجفة أضلع ولا نوحُ وُرقي غير صرخةِ نادبِ
11- وما غيّض السلوان دمعي وإنّم نزَفتُ دموعي في فراق الأصاحبِ
12- فحتّى متى أبقى ويظعنُ صاحبٌ أودّع ُ منهُ راحـلاً غير آيـبِ
13-وحتّى متى أرعى الكواكب ساهراً فمن طالعٍ أخرى الليالي وغاربِ
14- فرحماكَ يا مولايَ دعوةً ضارعٍ يمدُّ إلى ً نُعماك راحة راغـبِ
15-فأسمعني من وعظهِ كـل عبرةٍ يُترجمها عنه لسانُ التّجـاربِ
16-فسلَّى بما أبكى وسرَّى بما شجاً وكان على ليل السّرى خير صاحبِ
17- وقلتُ وقد نكّبتُ عنه لطيّةٍ سلامٌ فإنّا من مُقيمٍ وذاهبِ

-مهاد:

ليس غريباً أن يندفع الكتاب والباحثون، إلى دراسة شاعرية ابن خفاجة،فشاعريته مجال خصب وعريض،ولكن ما حظي به ما يزال ضئيلاً أما شموخ شعريته، عُرف ابن خفاجة بأنه شاعر الطبيعة الأكبر،وقد سمي بالشاعر البستاني،ولقبه المقري بصنوبري الأندلس لعنايته بوصف الطبيعة الأندلسية،و لاسيما الجانب المشرق منها،من أنهار، وأزهار، وأشجار ومنتزهات،و كان ابن خفاجة يصور الطبيعة الأندلسية فيشخصها،ويُسرف في استخدام التشبيهات، والاستعارات،ويمزجها بألفاظه الأنيقة المترفة، وخياله الخصب [(1)]

يقول عنه ابن بسام الشنتريني في كتابه «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة »:«الناظمُ المطبوع،الذي شهد بتقديمه الجميع،المتصرف بين حُكمه وتحكمه البديع،تصرف في فنون الإبداع كما شاء،وأتبع دلوه الرشاء،فشعشع القول و روقه،ومد في ميدان الإعجاز طلقه،فجاء نظامه أرق من النفس العليل،وآنق من الروض البليل،يكاد يمتزج بالروح،وترتاح إليه النفس كالغصن المروح،إن شئت فغمزات الجفون الوطف،أو إشارة الأنامل التي تُعقد من اللطف..فناهيك من غرض

انفرد بمضماره،وإن مدح فلا الأعشى للمحلق...وإن تصرف في فنون الأوصاف فهو فيها كفارس خصاف لا يبالي بمن التبس،ولا بأي نار اقتبس،إلا أنه نسك اليوم نسك ابن أذينة... »[2].

إن شعر ابن خفاجة هو شعر الطبيعة الزاهية التي تنبض بالحياة،وهو شعر الرياض والجنان والمنتزهات،يتأثر بها فيصورها تصويراً دقيقاً،يحفل بالرقة، واللين، والأصباغ،كما أنه شاعر المحسنات البديعية،هو شاعر «الشعور الحي الذي يتغلغل في الطبيعة فيحي ويشخص،وإذا ألأزهار والأشجار ألسنة حديث،وثغور ابتسام،وإذا النسيم أنفاس نجوى،وامتدادات آمال،وإذا ابن خفاجة في الطبيعة وإذا هي فيه،وإذا المشهد رائع،بما فيه من ابتكار وإبداع،وإذا ابن خفاجة شاعر الفن والجمال وشاعر الطبيعة الذي ينسج على أرفع منوال»[3].

يقول المستشرق ايمليو غومس عنه: «وقد طار صيت ابن خفاجة بما أنشأ من الشعر، في وصف الحدائق والرّياض، حتى لُقب بالجنان،وهو فن من الشعر جوده المحدثون من شعراء المشرق، وبرع فيه الصنوبري،وإن روضيات ابن خفاجة لتفيض عذوبة وجمالاً،وإنه ليصورها في فن مصقول حافل بالمعاني،فتبدو وكأنها مشاهد من عالم الخيال، أو مجالس أنس تدور فيها الأكواب،بيد أنه من المبالغة أن نذهب إلى أن روضياته كانت السابقة التي نشأ عنها أسلوبنا في فهم الطبيعة،وقد كان أثر ابن خفاجة عظيماً،وظلت الطريقة الخفاجية محتذاة حتى أواخر أيام مملكة غرناطة،وابن خفاجة وابن الزقاق، يُعتبران الذروة العليا للشعر العربي القديم المحدث في الأندلس،ولانجد بعدهما إلا تكراراً وانحداراً...»[4].

وقد تجلت إشكالية الزمن (الشباب/الشيخوخة) في الكثير من قصائده،ولم تظهر في القصائد المستقلة فحسب،بل تجلت في جميع المواضيع التي يطرقها،وتعدها الباحثة فاطمة طحطح أهم إشكالية نفسية عانى منها الشاعر:الخوف من زحف السنين،والخوف من الشيخوخة،والخوف من النهاية المحتومة،كما درس الباحث عبد الكريم فاضل العاني ظاهرة الموت في شعره،ولاحظ أن ابن خفاجة قد تمثل حقيقته،لذلك فقد كان صادق اللوعة،وشديد الحرقة،وقد كان صادقاً في مشاعره التي صدرت عن نفس هزتها (نكبة الموت)،وقد ورد الموت في شعره مدمجاً مع أغراض متنوعة، ولاسيما في الرثاء، والحكمة،وأغلب القصائد التي تطرق فيها إلى الموت ،كانت في رثاء الوزير ابن ربيعة،حيث كانت علاقته به وطيدة في حياته،حيث جمعهما الود، والإخلاص، والوفاء،فقد فقد فيه صديقاً وفياً،ولم يرث ابن خفاجة متملقاً،بل كان عميق الحزن يحترق قلبه، وتهتز مشاعره،وتفيض دمعه،وقد تعددت صور الموت في شعره أبرزها ذهاب شبابه،فقد كان ذهاب الشباب، يعادل عنده الموت،وينذره بدنو أجله وقرب نهايته،كما تميز كذلك بتنوع أسلوبه،حيث يذكر الموت في بعض الأحيان معتمداً على اللفظة المفردة،وفي بعض الأحيان الأخرى، معتمداً على السياق الذي جاء أغلبه من اللفظة المنفردة

---

(1)ابن بسام الشنتريني:الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة،تحقيق:د.إحسان عباس،القسم الثالث،المجلد02،ص:541 .

(2)الموجز في الأدب العربي وتاريخة،إعداد لجنة من الأساتذة من الأقطار العربية،دار المعارف،القاهرة،مصر،د.ت،ص: 140.

(1)إميليو غومس:الشعر الأندلسي،تعريب:حسين مؤنس،ص:28.

(2) عبد الكريم فاضل عبد الكريم العاني:الموت في شعر ابن خفاجة الأندلسي،مجلة الأستاذ،المجلد الأول1434هـ/2013م،ص:203 .

ذات الدلالة الواسعة في شعره،وقد استعان ابن خفاجة بالصور الموحية المعبرة، المتضمنة تكراراً ،وجناساً ،وطباقاً،وجملة من الأساليب الأخرى كالاستفهام ،والنداء،وهذا ما أسهم في بناء نصوصه بناءً قوياً،كما جاء الموت في شعره ممزوجاً بالعبر والمواعظ في أغلب الأحيان،وبدا ضمن شعره الخاص بالموت مستسلماً للقضاء والقدر [5].

وقد يكون من الملائم في هذا الصدد الإشارة إلى ما ذهب إليه بعض الباحثين من أن ابن خفاجة كان يلجأ إلى وصف الطبيعة بسبب «أنه كان يهاب الموت، ويخاف خوفاً شديداً من الفناء،وقد تلبسته هذه الفكرة،فبعثت في نفسه المعاني الحزينة،مما دعاه إلى اللجوء إلى الطبيعة، ضمن إحساسه بالتغير، والتبدل في الإنسان والكون.وقد رأى الطبيعة ضمن هذا الإطار،تلك الطبيعة التي بهرته بجمالها،فوصف مغانيها، ورياضها تارة،وأفجه فناء ما بها من كائنات جميلة فخاطبها ،وبثها أحزانه تارة أخرى، وفكرة الموت إذا كانت تتخذ طابعاً مرضياً لدى شاعر،فإنها تشكل هاجساً حاضراً عند الشعراء جميعاً،بل هي سمة إنسانية رافقت التاريخ البشري،في سعيه إلى الخلود حتى بعد الفناء،ورغبته في التشبث بالحياة وكل ما فيها من مظاهر البقاء وبهجة الحياة»[6].

أما إشكالية الزمن(الشباب/الشيخوخة)فقد ظهرت من خلال مجموعة من الثنائيات من بينها:

1-الشاعر والكون:حيث إن ابن خفاجة لم يعد ينظر إلى الطبيعة من منظور الماضي،ماضي الشباب،حيث كان يراها مشرقة،وراقصة،ومغرية،بل أصبح يراها بمرآة تجربته الداخلية،والتي تجسد كآبته،لقد كان في الماضي يُكثر من وصف الرياض والأزهار والأنهار ومجالس الأنس،أما في المرحلة الثانية من حياته،فأهم المظاهر التي ارتكز عليها وصفه هي الجبل والقمر والليل،أي جميع ما يُوحي بالسكون والرهبة والامتداد،والسرية والمجهول.

2-الشاعر والليل:فقد شكل الليل في شعر ابن خفاجة مجموعة من المدلولات التي تحوي الكثير من الإيحاءات والرموز،فتجربة الشاعر مع الليل تتسم بالعمق،وصلته به وطيدة،وليست عبارة عن وصف خارجي وسطحي فهو «ليل الذكرى والأشجان الدائمة، ليل الخوف والرهبة،فمن الليل يشعب الشاعر،ويشتق ويخلق صوره الفريدة،فليل ابن خفاجة هو ليل الأرق والسهاد،ليل البرق الخاطف المفزع،ليل الظلمة الحالكة،كما سال على وجه السجل المداد...،والليل عند ابن خفاجة هو مصدر كل الصور التي توحي بالكآبة والفزع والعنف،فهو تارة ذلك الغراب الأسود المرعب الذي يلاحق الشاعر باستمرار،ويحاول الانقضاض عليه...وهو ذلك المداد الأسود الذي سال على وجه السجل،فحول بياضه ونصاعته إلى ظلمة،كما يحول بياض الشباب إلى سواد العجز والشيخوخة.وهو تارة يصفه (الليل)بالسيف القاطع يحول دون استمرارية الشباب.كما يصف توهج كواكبه بأن مصيرها التحول إلى رماد عندما يبزغ الفجر.والفجر عنده لا يعني ولادة جديدة مشرقة،بل هو فجر مفجع ينكشف له عن فقد أحبابه،وذهاب أصدقائه بعيداً حيث لا رجوع،ليزداد حنين الشاعر وتتقد لوعته»[7].

---

(1) حنان إسماعيل أحمد عمايرة:الأثر المشرقي في شعر ابن خفاجة الأندلسي ، مجلة جامعة دمشق،المجلد:27،العدد الأول والثاني،2011م،ص:241.

(7) فاطمة طحطح:الغربة والحنين في الشعر الأندلسي،ص:218 وما بعدها.

وقد خلصت الباحثة فاطمة طحطح في دراستها لصورة الليل عنده إلى أن عمق ابن خفاجة، أو عمق شعره يتجلى في صورة الليل،في ذلك الامتداد المخيف،وأهم ما لاحظته أن الشاعر غالباً ما يختار الليل ليقوم برحلاته المجهولة ومغامراته المبهمة،التي قد تكون رحلات داخل أغوار النفس.

وليل السرى عند ابن خفاجة مليء بالمفاجآت والعجائب.فهو تارة يبدو له كغراب باسط عليه جناحيه،تارة هو غمد يحتويه،وتارة هو بحر والشاعر غريق فيه،وتارة أحشاء والشاعر جنين فيها كامن كمون السر،وتارة هو سريرة حب في أضلع الليل...إلخ.

كل هذه المجموعة من الصور تتحد في صورة عامة وتنبثق من صورة أم كما عند باشلار،هي إحاطة شيء مجهول مخيف ممتد مظلم...حيث لا مفر و لا مهرب ولا فجوة(إحاطة الرحم،إحاطة البحر،إحاطة الظلمة...).

ولا يخفى ما في هذا التصوير لليل من أثر التفسير الديني للعالم الآخر وعذاب القبر(الظلمة،المجهول،الرهبة...).

فقصائد الليل تفصح بصدق عن تجربة الشاعر مع ذلك الليل الخاص،كما رآه وعاينه،وليس في تلك المقطوعات التي يقف فيها عند حدود الرسم الخارجي والزخرفة اللغوية.

وشعريته ترتكز على عنصرين أساسيين:

1-عنصر الصورة،فبواسطتها تتشكل رؤيته للزمان والوجود،ويمكن أن نطلق عليها الصورة العنيفة.

2-عنصر الفعل بواسطته يفصح عن الرغبة العارمة،الضاربة في اللاوعي،ويمكن أن نطلق عليه أيضاً الفعل العنيف.

وبذلك حقق ابن خفاجة في المتخيل،ما لم يحققه في الواقع،فقد ظل يحن إلى نفس نهاضة وقوة مرتاضة لتجديد العهد،وهولا يتجدد.

حلم ابن خفاجة في استعادة الماضي/الشباب،وهو ما يشكل رؤيته للكون وعالمه الشعري المتميز [8].

لقد خلف لنا ابن خفاجة إنتاجاً شعرياً من لونين،ويبدو أن توزع إنتاجه على نمطين يرجع إلى جملة من الظروف،والأسباب،من بينها ما يرجع إلى الأوضاع السياسية والاجتماعية،لقد كان في القسم الأول من حياته شاعراً(أبيقورياً)يتمتع بالسعة، والشباب، والحرية التامة إزاء أصحاب السلطة في عهده،فأبدع أشعاره من أجل الإحساس بالغبطة والابتهاج الروحاني، الذي تثيره ممارسة هذا الفن،ولكن كما قال هو بنفسه (إن أيام السرور قصار)لم يلبث أن عرف الجور، والظلم ،وأحس بثقل الهموم، والسنين إبان عهد المرابطين،عندئذ فرض على نفسه،رغم أنفته وحبه لحريته، سلوكاً جديداً في الحياة،فبذل جهوداً جبارة في البحث عن أمير ،أو وزير، يحميه في شيخوخته،حتى لا يتجرع مرارة الحاجة،وهذا ما دفعه إلى نظم القصائد الطويلة في المدح،حيث تغنى، وفي نغمة واحدة بجمال الأقوياء، وعزتهم ،وقوتهم،تلك القصائد التي تترك في نفس القارئ نوعاً من الكآبة،وإنه لمن المؤسف، أن نرى ابن خفاجة يحال بينه وبين مثله الأعلى في الحياة،فيتخلى عما كان يحبه ويتذوقه،ويضطر إلى أن يكون شاعراً رسمياً،شاعر بلاط في خدمة هذا ،أو ذاك،وميزة هذا الإنتاج الشعري في تنوعه،فقد انفتح ابن خفاجة على جميع الأنواع الشعرية تقريباً،كالرثاء والغزل، والمدح، والخمريات، والزهد،وغير ذلك بحظوظ متفاوتة،والأنواع التي يميل إليها واضحة،فقد كان يرغب لرقة إحساسه،

---

(8) فاطمة طحطح:المرجع السابق،ص:229 ومابعدها.

وحبه اللذة في نظم أبيات شعرية خفيفة يتغنى فيها برغد العيش و السعادة،وبما تثير في نفسه من إعجاب تلك المناظر الطبيعية الرائعة التي كانت نصب عينيه في الجزيرة مسقط رأسه.

ويؤكد لنا هذا ما استشهد به الخلف من شعره،وهو شاهد على أنهم لم يتذوقوا منه إلا ما نظم في المرحلة الأولى من حياة شاعرنا.

و رغم ما يتسم به إنتاجه الشعري من ازدواج،فإننا نعي صوتاً واحداً لشاعرنا يبرهن على وحدة عبقريته،فالطبيعة موجودة حاضرة دائماً،ولاتكاد تغيب،حيث لا يتوقعها إنسان تلك الطبيعة المبتسمة ذات الروائح المنتشرة الندية تارة المشمسة تارة أخرى،تعرض أمام الأنظار حلتها ذات الألوان الزاهية المنسجمة،إلا أنها لا تسمح للعين أن تغوص وراءها، وتفضح أسرارها المكنونة،إنها تظهر كالفتاة الغيور على محاسنها،لا تظهر للناظر إلا لتختفي في الحين،فجاءت تلك المشاهد لطيفة،ومؤثرة،و فريدة من نوعها،وقد اكتفى شاعرنا،لمهارته وسلامة ذوقه،بإشارات خفيفة تستهوي القارئ، وتشذ خياله،فأعرض عن الأوصاف الدقيقة المفصلة الطويلة،التي ربما تسبب القلق،وتبعث على الملل،ففن ابن خفاجة ليس هو الوصف المحض،وإنما هو تأويل لكل ما يشاهده،وتشخيص لكل ما يقع تحت بصره،وكثيراً ما ينسب إلى الشيء الذي يهمه حركات، وأوصاف الإنسان.

وأول ما يلفت النظر في ذكر مشاهد الطبيعة عنده،هو تعدد الصور،فقد تتوالى هذه أنيقة رائعة متلونة،يأتي البيت بفضلها لا معاً ساطعاً،إن أمكن هذا التعبير،ولكن هذه الصور تأتي في بعض الأحيان غامضة مبهمة،نظراً لغلبة التكلف والتعقيد عليها، حتى ليعسر علينا فهم بعض الأبيات،ولهذا يتجلى لنا ابن خفاجة شاعرا مهتما بزخرفة أسلوبه،أكثر منه شاعراً مبتدعاً ذا مخيلة قوية.

وقصائد ابن خفاجة التي تؤثر في القارئ، وتستولي على قلبه، هي تلك القصائد التي يتجلى لنا فيها صاحبنا مخلصاً صادقاً،وكم من مرة أفضى إلينا ابن خفاجة بأسراره، وعواطفه مباشرة،أو بوساطة الجوامد، و لو أحصينا المعاني التي تتردد كثيراً في ديوان شاعرنا، لاضطررنا أن نلاحظ أن ابن خفاجة كان رومانسياً قبل الأوان،فقد صرح بما في الهوى من تبرم وشقاء،كما صرح بسعادة الحب، وعذوبة الصداقة،وآلام الفراق، ومرارة الوحدة،والخوف من الموت، وتعاسة الشيخوخة، وفناء الحياة (9).

ولعل ما يلفت النظر في منظور النقاد إلى شاعرية ابن خفاجة،رؤية الباحث إحسان عباس ،الذي جعل مهمة ابن خفاجة في تكثيف جميع مظاهر الطبيعة ،التي توزعت عند غيره من شعراء الأندلس، فوصف لطلب الصورة،واتخذ من الطبيعة قاعدة للغزل والذكرى،وأحل الاستعارة المستمدة من الطبيعة محل غيرها من الاستعارات،ووقف عند المناظر الطبيعية لرسمها كلها جزءاً جزءاً بغرض الرسم،ولم يقف دور ابن خفاجة عند هذا الحد،إذ زاد في التشخيص، وفي الرابطة العاطفية بينه وبين الطبيعة،واعتد الكثير من الوسائل الفنية الجديدة التي تتصل بملكات خاصة لديه،كما أنه لم يكتف بربط الطبيعة بموضوع الحب،ومجلس الخمر،بل ربطها بكل موضوع،وجعلها المتكأ الذي يستند إليه القول الشعري عامة،حيث يتضح من خلال شعره أنه ربطها أولاً بموضوع الرثاء،ثم بموضوع الفناء، والزهد عامة،حيث بث فيها المعاني الحزينة،

---

(9) حمدان حجاجي:حياة وآثار الشاعر الأندلسي ابن خفاجة،ص:331 وما بعدها.

وتحدث إليها،وتحدثت إليه، في صمتها ،وفي حركتها،فقد كان يرى الطبيعة في إطار الفناء،وضمن إحساسه بالتغير،وحسه الدقيق بينه ،وبين الزمن،كما لاحظ كذلك أن المؤثرات الخارجية التي عملت في توجيه ابن خفاجة، كانت مجزأة لدى سواه من الشعراء مجتمعة لديه،وربما قد تكون بعض المؤثرات غير متوفرة إلا عنده(10).

ومن أهم القصائد التي تجلى فيها تشخيص الطبيعة بعمق قصيدة «وصف الجبل»(11) ،أو قصيدة«الجبل»،التي حظيت باهتمام واسع من قبل عدد كبير من النقاد،وهي القصيدة التي تمثل تجربة نفسية مريرة عاناها الشاعر،فلجأ إلى الطبيعة التي تتمثل في الجبل،وقام بمحاورته ووصفه،وقد أخذت هذه القصيدة جملة من الأسماء والعناوين فهي تُعرف باسم« وصف الجبل ،» أو « بائية ابن خفاجة »، أو « مقيم وذاهب » ، أو« في الاعتبار » . وليست هذه العناوين جزءا أصيلا في القصيدة، وإنما وضعها لها – اجتهادا – بعض المنتقين، وبالنظر إلى معاني القصيدة ، فإنّنا نرى أنّ العنوان الأقرب إلى مضمون القصيدة هو « وصف الجبل » لأن العنوان هو ذاكرة النص، ورأسه المفكر.

النص:

قال ابن خفاجة الأندلسي(من الطويل) :

1- وأرعَنَ طمّاحِ الذُّؤابةِ بـاذخٍ يُطاوِلُ أعنانَ السّماءِ بغارِبِ
2- يَسدُّ مهَبَّ الرّيح عن كل وجهَةٍ ويزحَمُ لَيلاً شُهبَه ُ بالمناكبِ
3- وَقورٍ على ظَهْرِ الفَلاةِ كأنّهُ طوالَ اللّيالي مُطرِقٌ في العواقبِ
4- يلوثُ عَليه الغيمُ سودَ غَمائمٍ لها من وميضِ البرْقِ حمرُ ذوائبِ
5- أصَخْتُ إليه وَهوَ أخرسُ صَامتٌ فحدَّثني لَيلَ السّـرَى بالعجائبِ
6- وقال ألا كم كنتُ مَلجأ فاتكٍ وَمـوْطِنَ أوّاهٍ تبتّـلَ تـائبِ
7- وكم مرَّ بي من مدلج ومـؤوّبٍ وَقالَ بظلّيّ من مـطيّ وراكبِ
8- ولاطمَ من نُكب الرّياح معاطفي وزاحمَ من خُضر البحار جوانبِي
9- فما كان إلاَّ أن طوتهم يدُ الرَّى وطارت بهم ريحُ النوى والنوائبِ
10- فما خفق أيكي غير رجفة أضلع ولا نوحُ وُرقي غير صرخةِ نادبِ
11- وما غيّض السلوان دمعي وإنّم نزَفتُ دموعي في فراق الأصاحبِ
12- فحتّى متى أبقى ويظعنُ صاحبٌ أودّعُ منهُ راحـلاً غير آيـبِ
13-وحتّى متى أرعى الكواكبَ ساهراً فمن طالعٍ أخرى الليالي وغاربِ
14- فرحماكَ يا مولاي دعوةَ ضارعٍ يمدُّ إلى نُعماك راحة راغبِ
15-فأسمعني من وعظهِ كل عبرةٍ يُترجمها عنه لسانُ التّجـارِبِ
16-فسلّى بما أبكى وسرَّى بما شجاً وكان على ليل السّرى خير صاحبِ
17- وقلتُ وقد نكّبتُ عنه لطيّةٍ سلامٌ فإنّا من مُقيمٍ وذاهبِ

يتضح من خلال أبيات القصيدة، أنها قيلت في مرحلة كان يمر فيها الشاعر بآلام وأحزان،وكما يذهب الكثير من الدارسين، فهي مرحلة من حياته اتسمت بالشجن،والاغتراب،نتيجة لمعاناته من السفر ،والتنقل، والارتحال،وعلى

---

(10)إحسان عباس:تاريخ الأدب الأندلسي–عصر الطوائف والمرابطين–،ص:204.

(11)وردت القصيدة في ديوان ابن خفاجة،تحقيق:السيد مصطفى غازي،ص:215 وما بعدها،وفي غيره من المصادر مثل الذخيرة لابن بسام.

الأرجح أن تلك الفترة ،كانت أيام رحلته إلى المغرب،وقد مر في تلك الرحلة بجبل أشم من تلك الجبال ،التي تجاور البحر كبعض جبال جنوب الأندلس ،أو بعض جبال بلاد المغرب،وكان الشاعر في تلك الفترة قد وصل إلى مرحلة النضج،بعد أن مر بكثير من التجارب،و بلغ سن الحكمة،ولذا جاءت القصيدة معبرة عن تجربة تأملية فكرية،مبعثها مشاهد طبيعية،وقالبها فيه نزعة سردية قصصية ،فهي قصيدة جمعت بين خصائص شعر التأمل والحكمة،وسمات شعر الطبيعة، والوصف،وملامح شعر الحكاية والقصص،والجانب التأملي والتفمري يظهر في صلب التجربة، والإحساس،والجانب الطبيعي في الصور التي حملت التجربة، وحركت الإحساس.أما الجانب القصصي،ففي الإطار العام ،والقالب الفني الذي قدم به الشاعر ما أراد أن يقول [12].

تنقسم القصيدة إلى ثلاثة أقسام رئيسة،حيث يضع الباحث أحمد هيكل العناصر الآتية:

1-مقدمة في الارتحال المجهد، والسفر الشاق.

2-تأملات في الحياة والناس.

3-ختام في العظة والاعتبار.

إن بنية النص ومساره ،يظهر في ثلاثة محاور رئيسة:وصف الجبل،وحديثه،والتعقيب على حديث الجبل.

---

(12)أحمد هيكل:قصائد أندلسية-دراسة أدبية-،منشورات مكتبة الشباب،القاهرة،مصر،د،ت،ص:73.